**من كتاب فقه السيرة للبوطي**

**مراحل الدعوة الإسلامية في حياة النبي عليه الصلاة والسلام**

**مرت الدعوة الإسلامية في حياته عليه الصلاة والسلام منذ بعثته إلى وفاته بأربع مراحل :**

**المرحلة الأولي : الدعوة سراً، واستمرت ثلاث سنوات.**

**المرحلة الثانية : الدعوة جهراً، وباللسان فقط، دون قتال واستمرت إلى الهجرة.**

**المرحلة الثالثة : الدعوة جهراً مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو الشر واستمرت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية.**

**المرحلة الرابعة : الدعوة جهراً مع محاربة كل من وقف في سبيل الدعوة أو امتنع عن الدخول في الإسلام - بعد فترة الدعوة والإعلام - من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيين.**

**وكانت هذه المرحلة هي التي استقر عليها أمر الشريعة الإسلامية، وحكم الجهاد في الإسلام.**

**الدعوة سرا**

**بدأ النبي صلي الله عليه وسلم يستجيب لأمر الله، فأخذ يدعو إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، ولكنه كان يدعو إلى ذلك سراً حذراً من وقع المفاجأة علي قريش التي كانت متعصبة لشركها ووثنيتها، فلم يكن عليه الصلاة والسلام يظهر الدعوة في المجالس العمومية لقريش، ولم يكن يدعو إلاّ من كانت تشده إليه صلة قرابة أو معرفة سابقة.**

**وكان في أوائل من دخل الإسلام من هؤلاء خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وعلي ابن ابي طالب، وزيد ابن حارثة مولاه عليه الصلاة والسلام ومتبناه، وأبو بكر ابن أبي قحافة، وعثمان ابن عفان، والزبير ابن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد ابن ابي وقاص... وغيرهم رضي الله عنهم جميعا.**

**فإن هؤلاء يلتقون بالنبي سراً وكان أحدهم إذا أراد ممارسة عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مكة يستخفي فيها عن أنظار قريش. ثم لما أربي الذين دخلوا في الإسلام علي الثلاثين - ما بين رجل وامرأة - إحتار لهم رسول الله صلي الله عليه وسلم دار أحدهم، وهو الأرقم ابن ابي الأرقم، ليلتقي بهم فيها لحاجات الإرشاد والتعليم، وكانت حصيلة الدعوة في هذه الفترة ما يقارب الأربعين رجلا وامرأة دخلوا في الإسلام، عامتهم من الفقراء والأرقاء وممن لا شأن له بين قريش.**

**العبر والعظات :**

**1- وجه السرية في بدء دعوة الرسول صلي الله عليه وسلم :**

**لا ريب أن تكتم النبي صلي اله عليه وسلم في دعوته إلى الإسلام، خلال هذه السنوات الأولي، لم يكن بسبب الخوف علي نفسه، فهو حينما كلف بالدعوة ونزل عليه الوحي وقوله تعالى: ( يا أيها المدثر قم فأنذر ) علم أنه رسول الله إلى الناس، وهو لذلك كان يوقن بأن الإله الذي ابتعثه وكلفه بهذه الدعوة قادر علي أن يحميه ويعصمه من الناس، علي أن الله عز وجل لو أمره من اول يوم أن يصدع بالدعوة بين الناس علناً، لما تواني عن ذلك ساعة، ولو كان يتراءي له في ذلك مصرعه.**

**ولكن الله عز وجل ألهمه - والإلهام للرسول نوع من الوحي - أن يبدأ الدعوة في فترتها الأولي، بسرية وتكتم، وأن لا يلقي بها إلا من يغلب علي ظنه أنه سيصيخ لها ويؤمن بها، تعليماً للدعاة من بعده، وإرشاداً لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها، علي أن لا يتغلب كل ذلك علي الإعتماد والإتكال عليالله وحده وعلي ألا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معني التأثير والفعالية في تصوره وتفكيره، فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالي، فضلا عن أنه يتنافي مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام. ومن هنا تدرك، أن أسلوب دعوته عليه الصلاة والسلام في هذه الفترة كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبياً.**

**وبناءاً علي ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية، في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة - من حيث التكتم والجهر، أو اللين والقوة - حسبما تقتضيه الظروف وحال العصر الذي يعيشون فيه، وهي مرونة حددتها الشريعة الإسلامية، اعتمادا علي واقع سيرته صلي الله عليه وسلم، ضمن الأشكال والمراحل الأربعة التي سبق ذكرها، علي أن يكون النظر في كل ذلك إلى المصلحة للمسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية.**

**ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء علي أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب عليهم الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم، إذا ما أجمعوا قتالهم، فينبغي أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس، لأن المصلحة المقابلة وهي مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع.**

**ويقرر العز ابن عبد السلام حرمة الخوض في مثل هذا الجهاد قائلا : ( فإذا لم تحصل النكاية وجب الإنهزام، لما في الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وارغام أهل الإسلام، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة، ليس في طيها مصلحة )**

**قلت : وتقديم مصلحة النفس هنا، من حيث الظاهر فقط.**

**أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد، فإنها في الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضي- في مثل هذا الحال - أن تبقي أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى، وإلا هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين نفسه وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدوداً أمامهم من السبل.**

**والخلاصة أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذا أمكن الجهر بها وكان ذلك مفيداً، ولا يجوز المسالمة مع الظالمين والمتربصين بها إذا توفرت أسباب القوة والدفاع عنها، ولا يجوز القعود عن جهاد الكافرين في عقر دارهم إذا ما توافرت وسائل ذلك وأسبابه.**

**2- الأوائل الذين دخلوا في الإسلام والحكمة من إسراعهم إلى الإسلام قبل غيره:**

**وتحدثنا السيرة أن الذين دخلوا في الإسلام في هذه المرحلة كان معظمهم خليطا من الفقراء والضعفاء والأرقاء فما الحكمة من ذلك؟ وما السر في أن تأسس الدولة الإسلامية علي أركان مثل هؤلاء الناس؟ والجواب أن هذه الظاهرة هي الثمرة الطبيعية لدعوة الأنبياء في فترتها الأولي، ألم تر إلى قوم نوح كيف كانوا يعيرونه بأن أتباعه الذين من حوله ليسوا إلا من أراذل الناس ودهمائهم: (ما نراك إلا بشرا مثلنا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ) هود 27، وإلى فرعون وشيعته كيف كانوا يرون أتباع موسي أذلاء مستضعفين، حتى قال الله عنهم بعد أن تحدث عن هلاك فرعون وأشياعه : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها) الأعراف 137، وإلى ثمود الذين أرسل الله إليهم صالحاً، كيف تولي عنه الزعماء المستكبرون، وآمن به الناس المستضعفون، حتى قال الله في ذلك: ( قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟ قالوا إنّا بما أرسل به مؤمنون، قال الذين استكبروا إنّا بالذي آمنتم به كافرون ).**

**والسر في ذلك أن حقيقة هذا الدين الذي بعث الله به عامة أنبيائه ورسله إنما هي الخروج عن سلطان الناس وحكمهم إلى سلطان الله وحكمه وحده، وهي حقيقة تخدش أول ما تخدش ألوهية المتألهين وحاكمية المتحكمين وسطوة المتزعمين، وتناسب أول ما تناسب حالة المستضعفين والمستذلين والمستعبدين. فيكون رد الفعل أمام الدعوة إلى الإسلام لله وحده وهو المكابرة والعناد من أولئك المتألهين والمتحكمين، والإذعان والإستجابة من هؤلاء المستضعفين، وانظر، فإن هذه الحقيقة تتجلي بوضوح في الحديث الذي دار بين رستم قائد الجيش الفارسي في وقعة القادسية، وربعي ابن عامر الجندي البسيط في جيش سعد ابن أبي وقاص فقد قال له رستم : ما الذي دعاكم إلى حربنا والولوع بديارنا ؟ فقال : جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ثم نظر إلى صفوف الناس الراكعين عن يمين رستم وشماله، فقال متعجباً : ( لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولكني لا أري قوماً أسفه منكم، إننا معشر المسلمين لا يستعبد بعضنا بعضا، ولقد ظننت أنكم تتواسون كما نتواسي، وكان أحسن من الذي تصنعون أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض....... )**

**فالتفت المستضعفون بعضهم إلى بعض يتهامسون: صدق والله العربي.......**

**أمّا القادة والرؤساء فقد وجدوا في كلام ربعي هذا ما يشبه الصاعقة أصابت كيانهم فحطمته، وقال بعضهم لبعض: ( لقد رمي بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه).**

**ولا يعني هذا الكلام أن المستضعفين الذين أسرعوا إلى الإسلام قبل غيرهم لم يكن دخولهم فيه عن إيمان بل عن قصد ورغبة في التخلص من أذي المستكبرين وسلطانهم. ذلك لأن الإيمان بالله وحده والتصديق بما جاء به محمد صلي الله عليه وسلم، كان قدرا مشتركا بين زعماء قريش ومستضعفيها، فما منهم أحد إلا وهو يعلم صدق محمد صلي الله عليه وسلم فيما يخبر عن ربه، غير أن الزعماء والكبراء فيهم كانت تصدهم زعامتهم عن الإنقياد والإتباع له، وأجلي مثل علي ذلك عمه أبو طالب. وأما الفقراء والمستضعفون فما كان ليصدهم عن التجاوب مع إيمانهم والإنقياد له عليه الصلاة والسلام شيء، أضف إلى ذلك ما يشعر به أحدهم عند إيمانه بألوهية الله وحده من الإعتزاز به وعدم الإكتراث بسلطان غير سلطانه أو قوة غير قوته، فهذا الشعور الذي هو ثمرة الإيمان بالله عز وجل، يزيد في نفس الوقت قوة ويجعل صاحبه في نشوة وسعادة غامرة.**

**ومن هنا تعلم عظم الفرية التي يفتريها بعض محترفي الغزو الفكري في هذا العصر، حينما يزعمون بأن الدعوة التي قام بها محمد صلي الله عليه وسلم، إنما هي من وحي بيئته العربية نفسها، وأنها إنما كانت تمثل حركة الفكر العربي إذ ذاك. فلو كان ذلك كذلك، لما كان رصيد هذه الدعوة خلال ثلاث سنوات من بدايتها أربعون رجلا وامرأة، عامتهم من الفقراء والمستضعفين والموإلى والأرقاء، وفي مقدمتهم أخلاط من مختلفي الأعاجم : صهيب الرومي، وبلال الحبشي.**

**وسوف تجد في البحوث القادمة أن بيئته العربية نفسها هي التي أرغمته علي الهجرة من بلاده وأرغمت أتباعه من حوله علي التفرق هنا وهناك والخروج إلى بلاد الحبشة مهاجرين وذلك كراهية منها للدعوة التي زعموا أنه إنما كان يمثل بها نوازعها وأفكارها.**

**الجهر بالدعوة**

**قال ابن هشام : ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من النساء والرجال حتى فشي ذكر الإسلام بمكة وتحدث به، فأمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من الحق، وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفي رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالىبإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه. ثم قال الله له : ( فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ) وقال له : ( وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين وقل إني أنا النذير المبين ).**

**وحينئذ بدأ رسول الله صلي الله عليه وسلم بتنفيذ أمر ربه، فاستجاب لقوله تعالى( فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ) بأن صعد إلى جبل الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر، يا بني عدي، حتى إجتمعوا، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر : ما هو ؟ فقال النبي صلي الله عليه وسلم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا ما جربنا عليك كذباً، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب تباً لك سائر اليوم.. ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى( تبت يدا أبي لهب وتبّ ). ثم نزل الرسول صلي الله عليه وسلم فاستجاب لقوله تعالى( وأنذر عشيرتك الأقربين ) بأن جمع من حوله ذويه وأهل قرابته وعشيرته، فقال يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يابني مرة ابن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف : أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلّها ببلاها.**

**وكان رد فعل قريش أمام جهره بالدعوة، أن أدبروا عنه وتنكروا الدعوته معتذرين بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا الدين الذي ورثوه عن آبائهم وأصبح من تقاليد حياتهم وحينئذ نبههم الرسول صلي الله عليه وسلم إلى ضرورة تحرير أفكارهم وعقولهم من عبودية الإتباع والتقليد، واستعمال العقل والمنطق، وأوضح لهم أن آلهتهم التي يعكفون علي عبادتها لا تفيدهم أو تضرهم شيئا، وأن توارث آباءهم وأجدادهم لعبادتها ليس عذرا في إتباعهم بدون دافع إلا دافع التقليد، كما قال الله عز وجل في حقهم :(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون)!؟**

**فلما عاب آلهتهم، وسفه أحلامهم، وجرّ اعتذارهم عن تمسكهم بعبادة الأصنام بأنها تقاليد آباءهم وأجدادهم، إلى وصف آباءهم بعدم العقل - أعظموا الأمر، وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وإلا عمه أبا طالب الذي حدب عليه، ومنعه، وقام دونه.**

**العبر والعظات :**

**في هذا المقطع من سيرته عليه الصلاة والسلام دلالات ثلاث نجملها فيما يلي :**

**أولا : أن رسول الله صلي الله عليه وسلم حينما صدع بالدعوة إلى الإسلام في قريش وعامة العرب فاجأهم بما لم يكونوا يتوقعونه أو يألفونه، تجد ذلك واضحا في رد أبي لهب عليه، ثم في إتفاق معظم المشركين من زعماء قريش علي معاداته ومقاومته، وفي ذلك الرد القاطع علي من يحاولون تصوير هذا الدين بشرعته وأحكامه ثمرة من ثمار القومية، ويدعون أن محمداً صلي الله عليه وسلم إنما كان يمثل بدعوته التي دعا إليها آمال العرب ومطامحهم في ذلك الحين.**

**وليس الباحث يحاجة إلى أن يتعب نفسه بأي رد أو مناقشة لهذه الدعوي المضحكة عندما يطّلع علي سيرته صلي الله عليه وسلم، فالذين يروجون لها بين الناس هم أول من يعلم سخفها وبطلانها، ولكنها علي كل حال دعوي لابد منها في نظرهم من أجل إزاحة الدين وسلطانه عن سبيل المبادئ والأفكار الأخرى، فليس المهم أن تكون الدعوي صحيحة حتى يمكن الترويج لها، ولكن المهم أن تكون مصلحتهم وأغراضهم تتطلب ترويج ذلك وادعاءه، ولعلك لم تنس ما ذكرناه مفصلا في المقدمة الخامسة بصدد هذا الموضوع.**

**ثانيا : كان من الممكن أن لا يأمر الله رسوله بإنذار عشيرته وذوي قرابته خاصة، اكتفاءً بعموم أمره الآخر وهو قوله : ( ( فأصدع بما تؤمر) إذ يدخل أفراد عشيرته وذوو قرابته في عموم الذين سيصدع أمامهم بالدعوة والإنذار، فما الحكمة من خصوصية الأمر بإنذار عشيرته الأقربين ؟**

**والجواب أن في هذا إلماحاً إلى درجة المسئلوية التي تتعلق بكل مسلم عموماً وأصحاب الدعوة خصوصاً.**

**فأدني درجة في المسئولية هي مسؤولية الشخص عن نفسه، ومن أجل إعطاء هذه الدرجة حقها استمرت فترة إبتداء الوحي تلك المدة الطويلة إلى رأيناها، أي ريثما يطمئن محمد صلي الله عليه وسلم إلى انه نبي مرسل، وأن ما ينزل عليه إنما هو الوحي من الله عز وجل فيؤمن هو بنفسه أولا ويوطن ذاته لقبول كل ما سيتلقاه من مباديء ونظم وأحكام.**

**أما الدرجة التي تليها، فهي مسؤولية المسلم عن أهله ومن يلوذون به من ذوي قرباه وتوجيها إلى القيام بحق هذه المسئولية خصص الله الأهل والأقارب بضرورة الإنذار والتبليغ بعد أن أمر بعموم التبليغ والجهر به، وهذه الدرجة من المسؤولية يشترك في ضرورة تحمل أعباءها كل مسلم صاحب أسرة أو قربي، وليس من إختلاف بين دعوة الرسول في قومه ودعوة المسلم في أسرته بين أقاربه، إلا أن الأول يدعو إلى شرع جديد منزل عليه من الله تعالي، وهذا يدعو بدعوة الرسول صلي الله عليه وسلم الذي بعث إليه، فهو يبلغ عنه وينطق بلسانه، وكما لا يجوز للنبي أة الرسول في قومه أن يعقد عن تبليغهم ما اوحي إليه، فكذلك لا يجوز لرب الأسرة أن يقعد عن تبليغ أهله وأسرته ذلك، بل يجب أن يحملهم علي إتباع ذلك حملا ويلزمهم به إلزاما.**

**أما الدرجة الثالثة، فهي مسئولية العالم عن حيّه وبلدته، ومسئولية الحاكم عن دولته وقومه، وكل منهما ينوبان في ذلك مناب الرسول صلي الله عليه وسلم، إذ هما الوارثان الشرعيان له لقوله عليه الصلاة والسلام : العلماء ورثة الأنبياء، ولتسمية الإمام والحاكم خليفة، أي خليفة لرسول الله صلي الله عليه وسلم. علي أن العلم والدراية من لوازم الإمام والحاكم في المجتمع الإسلامي، فليس من خلاف بين طبيعة المسئولية المنوطة برسول الله صلي الله عليه وسلم والمنوطة بالعلماء والحكام في الإتساع والشمول. إلا أن الرسول كما قلنا يبلغ شرعا جديداً يوحي إليه من الله تعالي، أما هؤلاء فيمشون علي قدمه ويهتدون بهديه ويلتزمون سنته وسيرته فيما يفعلون ويبلغون.**

**و إذاً فقد كان صلي الله عليه وسلم يتحمل المسؤولية تجاه نفسه بوصف كونه مكلفاً، وكان يتحمل المسئولية تجاه أسرته وأهله بوصف كونه رب أسرة وذا آصرة وقربي، ثم كان يتحمل المسئولية تجاه الناس كلهم بوصف كونه نبيا ورسولا مرسلا من الله عز وجل.**

**ويشترك مع النبي صلي الله عليه وسلم في الأولي كل مكلف، وفي الثانية كل صاحب أسرة، وفي الثالثة العلماء والحكام.**

**ثالثا : عاب رسول الله صلي الله عليه وسلم علي قومه أن يأسروا أنفسهم للتقاليد الموروثة عن آبائهم وأجدادهم دون تفكر منهم في مدي صلاحها وفسادها، ودعاهم إلى تحرير عقولهم من أسر الإتباع الأعمي وعصبية التقاليد التي لا تقوم علي شي ءمن أساس الفكر والمنطق.**

**وفي هذا دليل علي أن مبني هذا الدين - بما فيه من عقائد وتشريعات - إنما هو علي العقل والمنطق، وأن المتوخي في التمسك به إنما هو مصلحة العباد العاجلة والآجلة، ولذلك كان من أهم شروط صحة الإيمان بالله وما يتبعه من امور إعتقادية أخري أن يقوم علي أساس من اليقين والفكر الحر، دون أدني تأثر بأي عرف أو تقليد، حتى قال صاحب جوهرة التوحيد في أرجوزته المعروفة :**

**فكل من قلد في التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد**

**ومن هنا تعلم أن الدين جاء حرباً علي التقاليد، والدخول في أسرها، إذ هو قائم في كل مبادئه وأحكامه علي أساس العقل والمنطق السليمين، علي حين أن التقاليد قائمة علي مجرد باعث الإقتداء والإتباع، أي دون أن يكون فيه لعنصر البحث والتفكير الحر أي تأثير، إذ أن كلمة التقاليد إنما تعني، في وضع اللغة العربية وما تواضع عليه عرف علماء الاجتماع (مجموعة العادات التي يرثها الآباء عن الأجداد، التي تسري بمجرد عامل الاحتكاك في بيئة من البيئات أو بلدة من البلدان بشرط أن يكون عامل التقليد المجرد هو العصب الرئيسي الذي يمد في تلك العادات من أجل الحياة والبقاء ).**

**فجميع ما اعتاده الناس من أنماط الحياة في مجتمعاتهم، ومن مظاهر اللهو في أفراحهم، ومن أشكال الحداد في مآسيهم وأحزانهم، مما حاكته عوامل التوارث القديم أو الاقتباس التلقائي عن طريق التأثر والاحتكاك جميع ذلك يسمي في اصطلاح اللغة وعلم الاجتماع ( تقاليد ).**

**إذا علمت هذا، أدركت أن الإسلام لا يمكن أن ينطوي علي شيء مما يسمي بالتقاليد، سواء ما كان منه متعلقا بالعقيدة أو مختلف النظم والأحكام، إذ العقيدة قائمة علي أساس العقل والمنطق، والأحكام قائمة علي أساس المصالح الدنيوية والأخروية وهي مصالح تدرك بالتفكير والتدبّر الذاتي وإن قصر عن إدراكها فهم بعض العقول لبعض العوارض والأسباب.**

**وإذا تبين لك هذا، أدركت مدي خطورة الخطيئة التي يقع فيها من يطلقون كلمة (التقاليد الإسلامية) علي مختلف ما يتضمنه الإسلام من عبادات وأحكام تشريعية وأخلاقية.**

**إذ من شأن هذه التسمية الظالمة وترويجها أن توحي إلى الأذهان أن قيمة السلوك والخلق الإسلامي ليست بسبب كونه مبدأ إلهيا يكمن فيه سر سعادة البشر - كما هو الحق - وإنما سبب أن كلا من النظام والخلق الإسلامي إنما هو عادات قديمة موروثة من الآباء والأجداد، ولا ريب أن النتيجة القطعية لهذا الإيحاء أن يضيق أكثر الناس ذرعاً بهذا الميراث القديم الذي يراد فرضه علي المجتمع في عصر كل ما فيه متطور ومتقدم وجديد، والواقع أن إطلاق هذا الشعار علي الأحكام الإسلامية، ليس في مصدره خطيئة عفوية، وإنما هو حلقة في سلسلة حرب الإسلام بالشعارات الباطلة المدسوسة.**

**فالغرض الأول من ترويج كلمة ( تقاليد إسلامية )، هو أن يؤتي بمعظم نظم الإسلام وأحكامه، ويسدل فوقها شعار (التقاليد ) حتى إذا مر علي ذلك زمن، وارتبط معني التقاليد بنظم الإسلام وأحكامه في أذهان الناس، ونسوا أن هذه النظم إنما هي في حقيقتها مبادئ قائمة علي أساس ما يقتضيه العقل والبحث السليم - أصبح من السهل علي أعداء الإسلام أن يحاربوه من النقطة التي تنفذ إليها حرابهم وسهامهم، إذ لا ريب أن المسلمين إذا استفاقوا ليجدوا معظم مبادئ الإسلام وأحكامه، كشؤون الزواج والطلاق، وحجاب المرأة وصيانتها، وعامة قضايا السلوك والأخلاق - قد أسبل عليها رداء التقاليد، فإن من الطبيعي أن يجدوا بعد ذلك من يدعو إلى نبذ التقاليد والخروج عن إسارها وكسر قيودها، خصوصا في هذا العصر الذي أصبحت السيادة فيه لحرية الرأي والتفكير.**

**ولكن الحقيقة أن الإسلام لا تقاليد فيه.**

**إنه الدين الذي جاء ليخلص العقل من براثن التقاليد، كما رأينا في أولي خطوات الدعوة التي قام بها رسول الله صلي الله عليه وسلم.**

**إن جميع ما أتى به الإسلام من نظم وتشريعات، إنما هي مبادئ والمبدأ هو ما يقوم علي أساس من التفكير والعقل، ويستهدف الوصول إلى مقصد معين، وإذا كانت المبادئ البشرية قد تخطيء الصواب أحياناً لشذوذ في أفكار أصحابها، فإن مبادئ الإسلام لا تخطيء الصواب أبداً لأن الذي شرعها هو خالق العقول والأفكار، وفي هذا وحده دليل عقلي كاف للاقتناع بهذه المبادئ واليقين بوجاهتها وصوابها. أما التقاليد، فإنما هي تلك التيارات السلوكية التي ينجرف فيها الناس تلقائياً بمجرد باعث المحاكاة والتقليد لدي الإنسان.**

**المبادئ هي الخط الذي يجب أن ينضبط بها تطور الزمن، لا العكس.**

**والتقاليد هي مجموعة الطفيليات التي نبتت تلقائياً وسط الحقول الفكرية للمجتمع فهي الحشائش الضارة التي لابد من اجتثاثها وتنقية سبيل التفكير السليم عنها.**

**الإيـــــذاء**

**ثم إن قريشاً اشتدت في معاداتها لرسول الله صلي الله عليه وسلم وأصحابه، اما الرسول صلي الله عليه وسلم فقد لاقي من إيذائهم أنواعا كثيرة، من ذلك ما رواه عبد الله ابن عمرو بن العاص أنه قال : بينا النبي صلي الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة ابن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل ابو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي صلي الله عليه وسلم وقال ك أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ ومنه ما رواه عبد الله ابن عمر قال : بينا النبي صلي الله عليه وسلم ساجد وحوله ناس من قريش، جاء عقبة ابن أبي معيط بسلا جزور فقذفه علي ظهر النبي صلي الله عليه وسلم فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة رضي الله عنها فأخذته من ظهره ودعت علي من صنع ذلك، ومنه ما كانوا يواجهونه به من فنون الهزأ والغمز واللمز كلما مشي بينهم أو مر بهم في طرقاتهم أو نواديهم.**

**ومنه ما رواه الطبري وابن اسحاق أن بعضهم عمد إلى قبضة من التراب فنثرها علي رأسه وهو يسير في بعض سكك مكة، وعاد إلى بيته والتراب علي رأسه، فقامت إليه إحدي بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله يقول لها : يا بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك.**

**وأما اصحابه رضوان الله عليهم، فقد تجرع كل منهم ألواناً من العذاب، حتى مات منهم من مات تحت التعذيب وعمي من عمي، ولم يثنهم ذلك عن دين الله شيئاً، ويطول البحث لو ذهبنا نسرد نماذج من العذاب الذي لاقاه كل منهم، ولكنا ننقل هنا ما رواه الإمام البخاري عن خبّاب ابن الأرتّ أنه قال : أتيت النبي صلي الله عليه وسلم وهو متوسد بردةً وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت يا رسول الله : ألا تدعو لنا ؟ فقعد وهو محمر الوجه، فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله.**

**العبر والعظات:**

**أول ما قد يخطر في بال المتأمل، حينما يري قصة ما لقيه صلي الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين، من صنوف العذاب والإيذاء، هو أن يتساءل : فيم هذا العذاب الذي لقيه النبي وأصحابه وهم علي الحق ؟ ولماذا لم يعصمهم الله عز وجل منه وهم جنوده وفيهم رسوله يدعون إلى دينه ويجاهدون في سبيله.**

**والجواب أن أول صفة للإنسان في الدنيا، أنه مكلف، أي أنه مطالب من قبل الله تعالى بحمل ما فيه كلفة ومشقة، وأمر الدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله تعالي، إذ لا معني للعبودية لله تعالىإن لم يكن ثمة تكليف، وعبودية الإنسان لله عز وجل ضرورة من ضرورات إلوهيته سبحانه وتعالي، فلا معني للإيمان بها إن لم ندرك عبوديتنا له.**

**فقد استلزمت العبودية - إذاً - التكليف، واستلزم التكليف تحميل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء، ومن أجل هذا كان واجب عباد الله في هذه الدنيا تحقيق أمرين إثنين :**

**أولهما : التمسك بالإسلام وإقامة المجتمع الإسلامي الصحيح.**

**ثانيهما : سلوك السبل الشاقة إليه واقتحام المخاطر وبذل المهج والمال من أجل تحقيق ذلك.**

**أي أن الله عز وجل كلفنا بالإيمان بالغاية، وكلفنا إلى جانب ذلك بسلوك الوسيلة الشاقة الطويلة إلى هذه الغاية مهما بلغت المسألة في خطورتها وصعوبتها.**

**ولو شاء الله لجعل السبيل إلى إقامة المجتمع الإسلامي بعد الإيمان به سهلاً معبداً، ولكن السير في هذه السبيل لا يدل حينئذ علي شيء من عبودية السالك لله تعالى وعلي أنه قد باع حياته وماله له عز وجل يوم أن أعلن الإيمان به، وعلي أن جميع أهوائه تابعة ومنقادة لما جاء به الرسول صلي الله عليه وسلم، ولأمكن حينئذ أن يلتقي علي هذه الجادة المؤمن والمنافق والصادق والكاذب، فلا يتمحص الواحد منهم عن الآخر، وإذاً فإن ما يلاقيه الدعاة إلى الله تعالى والمجاهدون في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي، سنة إلهية في الكون منذ فجر التاريخ تقتضيها حكم ثلاث :**

**أولا : صفة العبودية الملازمة للإنسان، لله عز وجل، وصدق الله إذ يقول : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ).**

**ثانياً : صفة التكليف المتفرعة عن صفة العبودية، فما من رجل أو امرأة يبلغ أحدهما عاقلا سن الرشد، إلا وهو مكلف من قبل الله تعالى بتحقيق شرعة الإسلام في نفسه وتحقيق النظام الإسلامي في مجتمعه، علي أن يتحمل في سبيل ذلك كثيراً من الشدة والأذى، حتى يتحقق معني التكليف.**

**ثالثاً : إظهار صدق الصادقين وكذب الكاذبين، فلو ترك الله تعالىالناس لدعوى الإسلام ومحبة الله تعالىعلي السنتهم فقط، لاستوي الصادق والكاذب، ولكن الفتنة والإبتلاء، هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب، وصدق اللهالقائل في محكم كتابه :( ألم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولو آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين ) العنكبوت 1،2 والقائل :(** [**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**](http://www.ali12.com/mybooks/find_quran.php?do=show_reslusts&id=435) **(142)) آل عمران.**

**وإذا كانت هذه هي سنة الله في عباده، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا حتى مع أنبيائه وأصفيائه، من أجل ذلك أوذي رسول الله صلي الله عليه وسلم، وأوذي من قبله الأنبياء جميعاً والمرسلين، ومن أجل ذلك أوذي أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمي من عمي، رغم عظيم فضلهم وجليل قدرهم عند الله عز وجل.**

**فإذا أدركت طبيعة العذاب الذي يلقاه المسلم في طريقه إلى إقامة المجتمع الإسلامي، علمت أنه ليس في حقيقته عقبات أو سدود تصد السالك أو المجاهد عن بلوغ الغاية، كما قد يتوهم بعض الناس، بل هو سلوك في الطريق الطبيعي الذي خطه الله تعالى بين المسلم والغاية التي أمره بالمسير إليها، أي أن المسلمين يتقربون إلى الغاية التي كلفهم الله بالوصول إليها، بمقدار ما يجدونه في طريقهم إلى ذلك من العذاب، وبمقدار ما يتساقط منهم من الشهداء.**

**ولذا فإنه لا ينبغي للمسلم أن يتوهم اليأس، إذا ما عاني شيئاً من المشقة أو المحنة، بل العكس هو الأمر المنسجم مع طبيعة هذا الدين أي أن علي المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيداً من الضر والنكبات سعياً إلى تحقيق أمر ربهم عز وجل.**

**(**[**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ**](http://www.ali12.com/mybooks/find_quran.php?do=show_reslusts&id=221) **(214 فقد كان جواب أولئك الذين لم يفهموا طبيعة العمل الإسلامي، وتوهموا أن هذا الذي يرونه من الأذي والعذاب إنما هو عنوان ودليل علي إبتعادهم عن النصر - كان جواب هؤلاء من الله تعالى: ألا إن نصر الله قريب.**

**وتجد برهان هذا جلياً فيما رويناه من قصة خباب بن الأرثّ رضي الله عنه، حينما جاء إلى الرسول صلي الله عليه وسلم وقد غالبه العذاب الذي إكتوي به معظم جسده، يشكو إليه صلي الله عليه وسلم ويسأله الدعاء للمسلمين والنصر، فقد كان جواب الرسول صلي الله عليه وسلم له بهذا المعني، إن كنت تتعجب من العذاب والأذى وتستغرب أن تري ذلك في سبيل الله عز وجل فاعلم أن هذا هو السبيل... وتلك هي سنة الله في جميع عباده الذين آمنوا به : مشط الكثير منهم في سبيل دينه بأمشاط الحديد ما بين المفرق والقدم فما صدهم ذلك شيء من دين الله.**

**وإن كنت تري في العذاب دلائل اليأس والقنوط من النصر، فأنت متوهم، بل الحق هو أن تجد العذاب والألم سيراً في الطريق ودنوّا من النصر، وسينصرن الله هذا الدين حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشي إلا الله وفي رواية زائدة : والذئب علي غنمه.**

**وهذا المعني نفسه هو السر في أن الرسول صلي الله عليه وسلم بشّر أصحابه بأن الله سيفتح لهم بلاد فارس والروم، ومع ذلك فلم تفتح هذه البلاد عليهم إلا بعد وفاته عليه الصلاة والسلام بزمن غير يسير ولقد كان من مقتضي فضل رسول الله صلي الله عليه وسلم عند ربه ومدي محبة الله عز وجل له أن يفتح كل تلك البلاد في حياته وبقيادته وتحت إشرافه، بدلا من أن يسجل التاريخ فتحها بقيادة أحد أتباعه صلي الله عليه وسلم. لقد كان هذا قريباً من محبة الله لرسوله، لولا أن النصر مرتبط بالقانون الذي ذكرناه.**

**لم يكن المسلمون في حياة الرسول صلي الله عليه وسلم قد دفعوا من اجل انتصارهم في بلاد الشام والعراق أقساط الثمن كله، ولابد قبل النصر من دفع كامل الثمن، لابد من ذلك ولو كان رسول الله صلي الله عليه وسلم موجوداً بينهم، وليست المسألة أن ترتبط الفتوحات باسم الرسول صلي الله عليه وسلم وتتم بقيادته وتحت إشرافه من اجل عظيم محبة الله تعالى له، ولكن المسألة هي أن يبرهن المسلمون الذين بايعوا الله ورسوله علي صدقهم في هذه البيعة، وأن يصدقوا فيما عاهدوا الله عليه يوم أن وقعوا بالقبول والرضي تحت قول الله تعالي: (**[**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم**](http://www.ali12.com/mybooks/find_quran.php?do=show_reslusts&id=1346)**111).**

**سياسة المفاوضات**

**جاء فيما يرويه ابن هشام عن ابن اسحاق أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً ذا بصيرة ورأي في قومه - قال في نادي قريش : يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمور لعله يقبل بعضها فنعطيه أيّها شاء ويكف عنا ؟ فقالوا بلي يا أبا الوليد : قم إليه فكلمه، فجاء عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال يابن أخي، إنك منا حيث علمت من الشرف في العشيرة والمكانة في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم.... فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال له رسول الله صلي الله عليه وسلم قل يا أبا الوليد أسمع.**

**قال يابن أخي : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه. فقال له رسول الله صلي الله عليه وسلم: أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم.... قال فاسمع مني، ثم قال :(بسم الله الرحمن الرحيم، حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت أياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون، وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلى إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه، وويل للمشركين ) ثم مضي رسول الله في القراءة وعتبة يسمع حتى وصل إلى قول الله تعالى( فإن أعرضوا فقد أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ) فأمسك عتبة بفيه وناشده أن يكف عن القراءة، وذلك خوفا مما تضمنته الآية من تهديد، ثم عاد عتبة إلى أصحابه فلما جلس بينهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائي أني سمعت قولا ما سمعت بمثله قط والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.... يا معشر قريش أطيعوني وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر علي العرب فملكه ملككم وعزه عزكم.**

**قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال هذا رأي فاصنعوا ما بدا لكم.**

**وروي الطبري وابن كثير وغيرهما أن نفرا من المشركين فيهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل جاؤوا فعرضوا علي رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يعطوه المال حتى يكون أغناهم وأن يزوجوه أجمل أبكارهم علي أن يترك شتم آلهتهم وتسفيه عاداتهم، فلما رفض إلا الدعوة إلى الحق الذي بعث به، قالوا نعبد إلهك يوماً وتعبد آلهتنا يوما، فرفض ذلك أيضا ونزل قوله تعالى: ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين ).**

**ثم إن أشراف قريش عادوا فكرروا المحاولة التي قام بها عتبة ابن ربيعة فذهبوا إليه مجتمعين، وعرضوا عليه الزعامة والمال، وعرضوا عليه الطب إن كان هذا الذي يأتيه رئيا من الجن، فقال لهم رسول الله صلي الله عليه وسلم : ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علي، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.**

**فقالوا له : فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل اموالاً ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليفجر لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضي من آبائنا، وليكن فيمن بعث لنا منهم قصي ابن كلاب، فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل وليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبغي.... فإن، صنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول، فقال لهم : ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، ثم إنهم قالوا له - بعد طول كلام وخصام - إنا قد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل في اليمامة يقال له الرحمن، وأنّا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وأنّا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلك أو تهلكنا. ثم قاموا وانصرفوا عنه.**

**العبر والعظات :**

**في هذا المشهد الذي عرضناه من سيرته صلي الله عليه وسلم ثلاث دلائل كل واحدة منها علي جانب كبير من الأهمية:**

**الدلالة الأولي : وهي توضح لنا في تمحيص دقيق حقيقة الدعوة التي قام بها الرسول صلي الله عليه وسلم وتفصلها عن كل ما قد يلتبس بها من الأهداف والأغراض التي قد يضمرها في أنفسهم عادة أرباب الدعوات الجديدة والمنادون بالثورة والإصلاح.**

**هل النبي صلي اله عليه وسلم يضمر من وراء دعوته الوصول إلى ملك؟ أو لعله يضمر الوصول إلى مستوي رفيع من الزعامة أو الغني، أو لعل الأمر لا يعدو خيالات تتراءى له بسبب مرض يعانيه؟.**

**كل هذه الاحتمالات، وسائل قد يتذرع بها محترفوا الغزو الفكري وأعداء هذا الدين ولكن يا لأسرار الحياة العظيمة التي هيأها رب العالمين لرسوله !.... لقد ملأ الله عز وجل حياة رسوله بالمواقف والمشاهد التي تقطع دابر كل احتمال، وتقطع السبيل إلى كل وسواس، وتدع أرباب الغزو الفكري حيارى في الطريقة التي ينبغي لهم أن يسلكوها في حربهم الفكرية.**

**كان من جليل حكمة الله تعالى أن يقوم مشركو قريش بسلسلة من المفاوضات مع رسول الله صلي الله عليه وسلم، بعد أن صوروا في أنفسهم كل هذه الاحتمالات، وهم أدري الناس بطبيعة دعوته والغاية البعيدة من رسالته وبأنه لن ينزل عند شيء من مغرياتهم، ولكن هكذا أرادت الحكمة الإلهية حتى ينطق التاريخ بتكذيب كل من سأتي من محترفي الغزو الفكري والتشكيك مع الزمن.**

**لقد فكر أمثال كريمر وفان فلوتن طويلا.... ثم لم يجدوا من سبيل لأداء مهمة التشكيك والغزو إلا أن يغمضوا أعينهم عن الحقيقة ويزعموا أن دوافع محمد عليه الصلاة والسلام في دعوته إنما كانت الرغبة في السيادة والملك، وإن صدموا رؤوسهم في هذا الزعم بصخور عاتية تقذفهم وتردهم إلى الوراء أشواطاً. لقد سخر الله من قبلهم عتبة ابن ربيعة وأمثاله، لحمل هذه الدوافع والآمال ووضعها بين يدي محمد صلي الله عليه وسلم لينالها قريبة سائغة وليبصر قريش كلها وقد دانت له وألقت من يدها ما رفعته من السلاح ووسائل التعذيب في وجهه ووجه أصحابه، فلماذا لم يلن الرسول لهم، ولم يتحول إلى هذه الغنيمة التي سيقت إليه ما دام أنها الدافع له من وراء رسالته ودعوته ؟.**

**وهل ينصت طالب الملك والزعامة لمن سعي يعرضهما عليه، في مفاوضة طويلة وتخويف وتهديد ورجاء، ليقول لهم أخيرا: (ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً..... فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ).**

**ثم إن معيشته الحياتية كانت مطابقة لكلامه هذا، فلم يعرض عن الملك والزعامة بلسانه، ليصل إليهما خلسة بسعيه وعمله، بل كان صلي الله عليه وسلم بسيطا في مأكله ومشربه , ولا يعلو عما عليه حال الفقراء والمساكين. قالت عائشة رضي الله عنها فيما يرويه البخاري ( لقد توفي النبي صلي الله عليه وسلم وما في رفّي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفّ لي فأكلت منه حتى طال علي ) ويقول أنس رضي الله عنه فيما يرويه البخاري أيضا: لم يأكل النبي صلي الله عليه وسلم علي خوان حتى مات، وما أكل خبزاً مرققا حتى مات ).**

**وكان بسيطا للغاية في ملبسه وأثاث بيته، يؤثر في جنبه الحصير وما عرف أنه نام علي شيء وثير، حتى إن نساءه جئن إليه يوما وفيهن السيدة عائشة رضي الله عنها يشتكين الفاقة ويطالبنه بمزيد من النفقة لزينتهن ولباسهن حتى لا تكون إحداهن أقل شأناً من مثيلاتها من نساء الصحابة، فأطرق ولم يجب، ثم نزل قول الله تعالى: (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما )، فتلي رسول الله صلي الله عليه وسلم عليهن هاتين الآيتين، ثم خيرهن بين قبول العيش معه علي الحالة التي هو فيها، أو الإصرار علي مطالبهن من النفقة وزيادة الزينة والمال وحينئذ يفارقههن ويسرحهن سراحاً جميلا، فاخترن العيش معه علي ما هو عليه.**

**فكيف يشك العقل - أي عقل - بعد هذا كله في صدق نبوة محمد صلي الله عليه وسلم وكيف يصح أن يتوهم الفكر او الخيال بأنه قد يكون مدفوعا برغبة الزعامة أو الطمع في الغني؟ فهذه هي الدلالة الأولي التي تؤخذ من هذا المشهد الذي ذكرناه.**

**الدلالة الثانية : وهي تبين لنا معني الحكمة التي كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يتمسك ويتصف بها. هل الحكمة أن تضع أنت السياسة التي تراها في سير الدعوة مهما كانت كيفيتها ومهما كان نوعها؟ وهل أعطاك الشارع صلاحية أن تسلك أي سبيل أو وسيلة تراها ما دام هدفك من وراء ذلك هو الحق؟**

**لا...... إن الشريعة الإسلامية تعبدتنا بالوسائل كما تعبدتنا بالغايات. فليس لك أن تسلك إلى الغاية التي شرعها الله لك إلا الطريق المعينة التي جعلها الله وسيلة إليها وللحكمة والسياسة الشرعية معان معتبرة، ولكن في حدود هذه الوسائل المشروعة فقط.**

**والدليل ما رويناه آنفا، فقد كان من المتصور في باب الحكمة والسياسة الشرعية أن يرضي رسول الله صلي الله عليه وسلم معهم بالزعامة والملك علي أن يجمع في نفسه اتخاذ الملك والزعامة وسيلة إلى تحقيق دعوة الإسلام فيما بعد، خصوصاً وأن للسلطان والملك وازعاً قوياً في النفوس، وحسبك أن أرباب الدعوات والمذاهب ينتهزون فرصة الاستيلاء علي الحكم كي يستعينوا بسلطانه علي فرض دعوتهم ومذاهبهم علي الناس. ولكن النبي صلي الله عليه وسلم لم يرض مثل هذه السياسة والوسيلة إلى دعوته، لأن ذلك ينافي مبادئ الدعوة نفسها.**

**لو جاز أن يكون مثل هذا الأسلوب نوعا من أنواع الحكمة والسياسة الرشيدة، لأنمحى الفرق بين الصادق الصريح في صدقه والكاذب الذي يخادع في كذبه ولتلاقى الصادقون في دعوتهم مع الدجالين والمشعوذين علي طريق واحدة عريضة اسمها: الحكمة والسياسة.**

**إن فلسفة هذا الدين تقوم علي عماد الشرف والصدق في كل من الوسيلة والغاية، فكما أن الغاية لا يقوّمها إلا الصدق والشرف وكلمة الحق، فكذلك الوسيلة لا ينبغي أن يخطّها إلا مبدأ الصدق والشرف وكلمة الحق، ومن هنا يحتاج أرباب الدعوة الإسلامية في معظم حالاتهم وظروفهم إلى التضحية والجهاد لأن السبيل التي يسلكونها لا تسمح لهم بالتعرج كثيراً ذات اليمين وذات الشمال.**

**ومن الخطأ أن تحسب مبدأ الحكمة في الدعوة إنما شرع من أجل تسهيل عمل الداعي أو من أجل تفادي المآسي والأتعاب، بل السر في مشروعية الحكمة في الدعوة إنما هو سلوك أقرب الوسائل إلى عقول الناس وأفكارهم، وعني هذا أنه إذا اختلفت الأحوال وقامت عثرات الصد والعناد دون سبيل الدعوة، فإن الحكمة حينئذ إنما هي إعداد العدة للجهاد والتضحية بالنفس والمال، إن الحكمة هي أن تضع الشيء في مكانه. وهذا هو الفرق بين الحكمة والمخادعة، وبين الحكمة والمسالمة.**

**وأنت خبير أن رسول الله صلي الله عليه وسلم لما استبشر بما رآه من دلائل إقبال بعض زعماء قريش علي فهم الدين، انصرف إليهم بكليته مبتهجاً يكلمهم ويشرح لهم ما يستفسرون عنه من حقائق الإسلام، حتى دعاه ذلك الاستبشار والطمع في هدايتهم إلى أن يعرض عن الصحابي الضرير عبد الله ابن أم مكتوم حينما مر بهم فوقف إلى جانبهم يستمع، وأخذ هو الآخر يسأل رسول الله صلي الله عليه وسلم، وكان ذلك منه عليه الصلاة والسلام حرصاً علي الفرصة أن لا تفوته وأملا في أن يجيب عبد الله ابن أم مكتوم في أي وقت آخر، فعاتبه الله علي ذلك في سورة : ( عبس وتولي أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكي) وأنكر عليه اجتهاده هذا، وإن كانت غايته مشروعة ونبيلة، ذلك لأن الوسيلة قد انطوت علي كسر خاطر مسلم أو ما يدل علي الإعراض عنه وعدم الالتفات إليه من أجل اجتذاب قلوب المشركين فهي ليست بمشروعة ولا مقبولة.**

**والخلاصة أنه ليس لأحد من الناس أن يغير شيئا من أحكام الإسلام ومبادئه، أو يتجاوز شيئاً من حدوده أو يستهين بها، باسم إتباع الحكمة في النصيحة والدعوة لأن الحكمة لا تعتبر إلا إذا كانت مقيدة ومنضبطة ضمن حدود الشريعة ومبادئها وأخلاقها.**

**الدلالة الثالثة : ونستفيدها من موقف الرسول صلي الله عليه وسلم من تلك المطالب التي طلبتها قريش منه صلي الله عليه وسلم شرطاً لإتباعها إياه، وهو موقف أيده الله فيه، ففيه كما ذكر عامة المسلمين نزل فيه قول الله تعالى :( وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقي في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ) .**

**وليس السبب في عدم إستجابة الله لهم ذلك، ما قد يظنه البعض من أن الرسول صلي الله عليه وسلم ما أوتي من المعجزات إلا معجزة القرآن، ولذلك لم يستجب لهم مطالبهم، وإنما السبب أن الله عز وجل علم أنهم إنما يطالبون بذلك كفراً وعناداً وإمعاناً في الإستهزاء برسول الله صلي الله عليه وسلم، كما هو واضح في أسلوب طلبهم ونوع المطاليب التي عرضوها، ولو علم الله عز وجل فيهم صدق الطلب وحسن النية وأنهم مقبلون في ذلك علي محاولة التأكد من صدق النبي عليه الصلاة والسلام، لحقق لهم ذلك، ولكن أمر قريش في ذلك مطابق لما وصفه الله تعالى في آية أخري وهي قوله تعالى:(ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) وإذا علمت ذلك أدركت أنه لا تنافي بين هذا وما ثبت من إكرام الله لنبيه عليه الصلاة والسلام بالمعجزات الكثيرة المختلفة مما سنفصل القول فيه قريبا ً إن شاء الله.**

**الحصار الاقتصادي**

**ورد بأسانيد مختلفة عن موسي ابن عقبة، وعن ابن إسحاق وعن غيرهما أن كفار قريش أجمعوا أمرهم علي قتل رسول الله صلي الله عليه وسلم، وكلموا في ذلك بني هاشم وبني المطلب ولكنهم أبوا تسليمه صلي اله عليه وسلم إليهم، فلما عجزت قريش عن قتله صلي الله عليه وسلم أجمعوا علي منابذته ومنابذة من معه من المسلمين ومن يحميه من بني هاشم وبني المطلب، فكتبوا بذلك كتاباً تعاقدوا فيه علي ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم، ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلم بنو المطلب رسول الله صلي الله عليه وسلم للقتل، وعلقوا الكتاب في جوف الكعبة. والتزم كفار قريش بهذا الكتاب ثلاث سنوات، بدءاً من المحرم سنة سبع من البعثة إلى السنة العاشرة منها، وقيل استمر ذلك سنتين فقط.**

**ورواية موسي ابن عقبة تدل علي أن ذلك كان قبل أمر رسول الله صلي الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وإنما أمرهم بها أثناء هذا الحصار. أما رواية ابن اسحاق فتدل علي أن كتابة الصحيفة كانت بعد هجرة أصحابه صلي الله عليه وسلم إلى الحبشة وبعد إسلام عمر.**

**وحوصر بنو هاشم وبنو المطلب ومن معهم من المسلمين، ومعهم رسول الله صلي الله عليه وسلم في شعب بني المطلب، وإنما شعاب مكة متفرقة، واجتمع فيه من بني هاشم وبني المطلب المسلمون والكافرون، أما المسلمون فتديناً وأما الكافرون فحمية، إلا ما كان من أبي لهب، عبد العزي ابن عبد المطلب، فإنه خرج إلى قريش فظاهر النبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه.**

**فجهد النبي صلي الله عليه وسلم والمسلمون جهداً شديداً في هذه الأعوام الثلاث واشتد عليهم البلاء، وفي الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر. وذكر السهيلي أنهم كانوا إذا قدمت العير مكة، يأتي أحد أصحاب رسول الله إلى السوق ليشتري شيئا من الطعام يقتاته لأهله، فيقوم أبو لهب فيقول يا معشر التجار غالوا علي أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يده شيء يعللهم به.**

**فلما كان علي رأس ثلاث سنوات من بدء هذا الحصار، تلاوم قوم من بني قصي، فأجمعوا أمرهم علي نقض ما تعاهدوا عليه،وأرسل الله علي صحيفتهم التي كتب فيها نص المعاهدة الأرضة فأتت علي معظم ما فيها من ميثاق وعهد، ولم يسلم من ذلك إلا الكلمات التي فيها ذكر الله عز وجل.**

**وقد أخبر الرسول صلي الله عليه وسلم عمه أبا طالب بذلك، فقال له أبو طالب: أربك أخبرك بذلك؟ قال نعم، فمضي في عصابة من قومه إلى قريش، فطلب منهم أن يأتوه بالصحيفة موهماً إياهم أنه نازل عند شروطهم فجاؤوا بها وهي مطوية، فقال أبو طالب: إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني قط، أن الله تعالى قد سلط علي صحيفتكم التي كتبتم الأرضة فأتت علي كل ما كان فيها من جور وقطيعة رحم، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا وارجعوا عن سوء رأيكم، فو الله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا وإن كان الذي يقول باطلا دفعنا إليكم صاحبنا ففعلتم به ما تشاؤون، فقالوا قد رضينا بالذي تقول.**

**ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر الصادق المصدوق صلي الله عليه وسلم فقالوا هذا سحر ابن أخيك ! وزادهم ذلك بغياً وعدواناً.**

**ثم إن خمسة من رؤساء المشركين من قريش، مشوا في نقض الصحيفة، وإنهاء هذا الحصار. وهم : هشام ابن عمرابن الحارث، وزهير ابن أمية، والمطعم ابن عدي، وأبو البختري ابن هشام، وزمعة ابن الأسود.**

**وكان أول من سعي إلى نقضها بصريح الدعوة زهير ابن أمية، أقبل علي الناس عند الكعبة فقال يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكي لا يباعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، ثم قال بقية الخمسة نحواً من هذا الكلام، ثم قام المطعم ابن عدي إلى الصحيفة فمزقها، ثم انطلق هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة، إلى بني هاشم وبني المطلب ومن معهم من المسلمين فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم.**

**العبر والعظات :**

**هذه القطيعة الظالمة، تصور قمة الشدة التي لقيها النبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه طيلة ثلاثة أعوام، وقد رأيت المشركين من بني هاشم وبني المطلب، شاركوا المسلمين في تحملها، ولم يرضوا أن يتخلوا عن رسول الله صلي الله عليه وسلم.**

**وليس لنا من حديث عن هؤلاء المشركين وسبب موقفهم هذا، فقد كان الذي دفعهم إليه حمية القرابة والرحم، وإباء الذل الذي كان يتلبس بهم لو أنهم خلوا بين محمد صلي الله عليه وسلم ومشركي قريش من غير بني هاشم وبني المطلب يقتلونه ويفتكون به، بقطع النظر عن العقيدة والدين، فقد آثروا إذاً أن يجمعوا بين رغبتين في صدورهم :**

**الأولي: الثبات علي الشرك والاستكبار علي الحق الذي جاءهم به محمد صلي الله عليه وسلم.**

**الثاني: الانصياع للحمية التي تدعوا إلى حماية القريب من بطشة الغريب وظلمه، بحق كان أو باطل.**

**أما المسلمون وعلي رأسهم رسول الله صلي الله عليه وسلم، فإنما صبرهم علي ذلك الانصياع لأمر الله، وإيثار الآخرة علي الدنيا، وهو أن الدنيا عندهم في جنب مرضات الله عز وجل، وهذا ما يهمنا أن نبحث فيه، قد تسمع بعض المبطلين من محترفي الغزو الفكري يقولون : إن عصبية بني هاشم وبني المطلب كانت تكمن خلف دعوة محمد صلي الله عليه وسلم وتحوطها بالرعاية والحفظ !... والدليل علي ذلك موقفهم السلبي من مشركي قريش في مقاطعتهم للمسلمين .**

**وإنها لمغالطة مكشوفة، لا يتماسك عليها حجاب أي منطق ولو كان صوريا، ذلك لأن من الطبيعي جداً أن تقود الحمية الجاهلية بني المطلب وبني هاشم إلى الذود عن حياة ابن عمهم عندما تتهددها يد غريبة ويدنوا منها بالسوء شخص دخيل.**

**والحمية الجاهلية إذ تدفع ذوي القربي إلى مثل هذا التعصب، لا تنظر إلى مبدأ، ولا تتأثر بحق أو بباطل، وإنما هي العصبية ولا شيء غير العصبية، ولذلك أمكن أن يجتمع في ذوي قرباه صلي الله عليه وسلم صفتان متناقضتان بحسب الظاهر وهما : الاستكبار علي دعوته والجحود بها، والانتصار له ضد سائر المشركين في قريش.**

**ومع ذلك فأي فائدة حققوها للنبي صلي الله عليه وسلم من وراء اعتصامهم معه؟ لقد أوذوا كما أوذي هو وأصحابه، ومضت قريش في قطيعتها للمسلمين بالضراوة والشراسة اللتين أرادتهما دون أن يخفف بنو هاشم أو بنو المطلب من غلوائهما شيئاً.**

**والمهم أن تعلم بأن حماية الأقارب لرسول الله صلي الله عليه وسلم لم تكن حماية للرسالة التي بعث بها وإنما كانت حماية لشخصه من الغريب، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية من قبل المسلمين، وسيلة من وسائل الجهاد والتغلب علي الكافرين والرد لمكائدهم وعدوانهم، فأنعم بذلك من جهد مشكور، وسبيل يتنبهون إليها.**

**أما رسول الله صلي الله عليه وسلم ومعه أصحابه المؤمنون، فما الذي كان يمسكهم علي هذا الضيق الخانق ؟... وأي غاية كانوا يتأملونها من وراء الثبات علي الشدة؟ بماذا يجيب علي هذا السؤال أولئك الذين يتأولون رسالة محمد صلي الله عليه وسلم وإيمان أصحابه به علي أنها ثورة يسار ضد يمين أي ثورة الفقراء المضطهدين ضد الأغنياء المترفين؟**

**تصور هذه السلسلة التي استعرضناها، من حلقات الإيذاء والتعذيب لرسول الله صلي الله عليه وسلم ولأصحابه، ثم أجب علي ضوئها : كيف يستقيم أن تكون دعوة الإسلام ثورة اقتصادية ألهبها الجوع وقادها الحقد علي تجار مكة وأرباب الفعاليات الإقتصادية فيها ؟**

**لقد عرض المشركون علي رسول الله صلي الله عليه وسلم الملك والثراء والزعامة، علي أن يتخلي عن الدعوة إلى الإسلام، فلماذا لم يرض عليه الصلاة والسلام بذلك، ولماذا لم يثر عليه أصحابه ولم يضغطوا عليه - وإن غايتهم الشبع بعد الجوع - كي يقبل بعرض قريش ؟ وهل يطمع أصحاب الثورة اليسارية بشيء أكثر من الحكم يكون في أيديهم والمال يكون في جيوبهم ؟**

**ولقد قوطع محمد صلي الله عليه وسلم ومعه أصحابه المسلمون عن سبيل كل معايشة اقتصادية واجتماعية مع بني قومه، فلم تترك سلعة تتسلل إلى أيديهم، ولم يترك طعام يدخل إلى بيوتهم، حتى راحوا يأكلون أوراق الشجر، وهم علي ذلك صابرون، محدقون برسول الله صلي الله عليه وسلم، أفهكذا يصنع من تعتلج وراء صدره الثورة من أجل لقمة العيش ؟ !..**

**وعندما هاجر النبي صلي الله عليه وسلم إلى المدينة وهاجر إليها من قبله ومن بعده أصحابه، تركوا المال والأرض والممتلكات المختلفة واستقبلوا بوجوههم شطر المدينة المنورة، وقد تجردوا من كل ما يتعلق به الطامعون في المال، لا يبتغون عن إيمانهم بالله بديلا، ولا يقيمون وزنا لدنيا فاتتهم ولملك أدبر عنهم، أفهذا هو الدليل علي أنها ثورة يسارية قامت من أجل لقمة طعام ؟!**

**قد يكون دليل هؤلاء الناس علي ما يتصورون ملاحظة الأمرين التاليين:**

**الأول: أن الجماعة الأولي من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم في مكة كانت أغلبيتهم من الفقراء والموإلى والمضطهدين، وهو ما يدل علي أنهم ينفّسون بإتباعهم محمد صلي الله عليه وسلم عن شيء من كربهم، وإنهم كانوا يتأملون مستقبلا إقتصادياً أفضل لأنفسهم في ظل الدين الجديد.**

**الثاني: أن هؤلاء الأصحاب ما لبثوا بعد حين أن فتحت عليهم آفاق الدنيا، وأقبل إليهم الثراء والمال، وهو دليل علي أن خطة الرسول صلي الله عليه وسلم كانت ترمي إلى تحقيق هذه الغاية، وأنت إذا تأملت في استدلالاتهم علي ما يتصورونه، بهاتين الملاحظتين أدركت كم هو نصيب الخيال من عقولهم ومنهج تفكيرهم.**

**أما أن الجماعة من أصحاب النبي صلي الله عليه وسلم كانت علي الأغلب من الفقراء والموالي، فنعم، ولكن ليس بين هذه الحقيقة وذلك الوهم أي علاقة أو نسب، إن شريعة الله تقضي بإرساء العدالة بين الناس، وبالضرب علي يد كل ظالم وطاغية متجبر ومستكبر، من المسلم أن يعرض عنها بل أن يحاربها أولئك الذين إستمرؤوا حياة البغي والظلم، لأنها تحملهم المغارم أكثر من أن تقدم إليهم المغانم، كما أن من المسلم به أن يرحب بها كل مستضعف مظلوم، بل كل إنسان ليس له في تجارة البغي والاستغلال نصيب، لأنها تقدم لهم المغانم أكثر من أن تقدم لهم المغارم، أو لأنهم - علي أقل تقدير - ليست لهم مع الناس مشكلات تجعلهم يستثقلون تبعاتها وتكليفاتها.**

**إن معظم من كان حول رسول الله صلي اله عليه وسلم كان مستيقناً أنه علي الحق وأنه نبي مرسل، ولكن أرباب الزعامات وعشاق العظمة والسيطرة، وجدوا من طبيعتهم وظروفهم ما أصبح عائقاً لهم عن الاستسلام لهذا الحق والتفاعل معه، أما الآخرون فلم يجدوا ما يعيقهم عن الاستسلام لشيء يمنوا به واستيقنوه. فما العلاقة بين هذه الحقيقة التي يفهمها كل باحث، وما يزعمه أولئك الزاعمون ؟**

**وأما أن خطة الدعوة الإسلامية التي سلكها الرسول صلي الله عليه وسلم كانت تستهدف امتلاك المسلمين لمنابع الثروة واستيلائهم علي عروش الملك واستلاب السيادة منهم، بدليل أن المسلمين قد وصلوا فعلاً إلى ذلك - فإنه والله أشبه بمحاولة الجمع بين المشرق والمغرب!**

**إذا كان المسلمون قد تمكنوا من فتح بلاد الروم والفرس، في حقبة يسيرة من الزمن، بعد أن صدقوا الله في إسلامهم، أفيكون ذلك دليلاً علي أنهم أسلموا طمعاً بعرش الروم والفرس؟!**

**لو أنهم أرادوا من وراء إسلامهم الوصول إلى شهوة من شهوات الدنيا أياً كانت، لما تحقق لهم ولا الجزء اليسير من معجزة ذلك الفتح.**

**لو كان عمر ابن الخطاب وهو يجهز جيش القادسية ويودع سعد ابن أبي وقاص، يستهدف كنوز كسري، ويسيل لعابه رغبة في أن ينقلب في مثل نعيمه ويجلس علي مثل عرشه، لما عاد إليه سعد إلا بأثقال من الخيبة والهوان، ولكنهم صدقوا الله في الجهاد من أجل نصرة دين الله، فصدقهم فيما أكرمهم به من تمليكهم زمام الحكم وإغنائهم بما لم يكونوا يحلمون.**

**لو كان الحلم الذي يراود المسلمين في معركة القادسية، وصولاً إلى ثروة وتقلباً في نعيم وتحقيقاً للذائذ العيش إذاً لما دخل ربعي ابن عامر رضي الله عنه سرادق رستم مزدرياً مظاهر الترف التي غمس فيها السرادق غمساً يتوكأ بزج رمحه علي البسط والنمارق الفاخرة حتى أفسدها، ولما قال لرستم إن دخلتم الإسلام تركناكم وأرضكم وأموالكم !... أهكذا يقول من جاء ليستلب الملك والأرض والمال؟**

**لقد أكرمهم الله بمقدرات الدنيا كلها، لأنهم لم يكونوا يفكرون فيها، وإنما كان تفكيرهم منصرفاً إلى تحقيق مرضاة الله، ولو كانوا يستهدفون من جهادهم هذه المقدرات لما وصلوا إلى شيء منها**

**المسألة بما فيها ليست إلا تحقيقاً للقانون الإلهي الذي يقول :( ونريد أن نمن علي الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ) ، وأن تفهم هذا القانون لأيسر ما يكون علي العقل أي عقل كان، بشرط واحد أن يكون صاحبه حراً عن العبودية لأي رغبة أو غرض .**